الخمر والطبيعة عند الخالديين

حبيب حسين الحسني
قسم اللغة العربية

أولع الشعراء في القرن الرابع الهجري بوصف الخمر والتغني بها، فذكروها في شعرهم كثيرا ، وأشادوا بلذتها وشربها ، وذكروا مجالس الشرب في الاديرة والحانات والرياض . وسنحاول في هذا البحث أن نلقي ضوءاً على وصف الخمر عند الشاعرين الخالديين (١) الذين عاشا في كل من الموصل وحلب . وقد أثرت في الشاعرين البيئة التي عاشا فيها ، وخاصة في مدينة الموصل وما جاورها حيث الاديرة والبيع الكثيرة ووفرة الشراب والخمر في حاناتها . وقد تردد هذان الشاعران كثيرا على هذه الاديرة . فتعلقا بما فيها من أسباب اللهو والقصف . فوصفاها لنا في شعرهما ، وذكرا لنا أسباب تعلقهما بالخمر وحبهما لها . ولذلك فاننا نلاحظ أنهما قد انغمرا في الملذات وأطلقا لنفسيهما العنان . كما أنهما قد عشقا الطبيعة الفاتنة ذات الالوان البهيجة والمناظر الساحرة ، فذكراها في شعرهما ومزجاها بشعر الخمر . فأصبحت جزءا لا يتجزأ منه .

ومعاقرة الخمر وشربها في رأي الشاعرين له مسوغاته ودوافعه .

---

(١) الخالديان : هما ابو بكر محمد وابو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ، نسبة الى الخالدية . وهي من قرى الموصل . كانا شاعرين مجيدين محسنين . اشتركا في كثير من الشعر ونسب اليهما معا . ينظر اليتيمة : ٢/١٨٣ ومعجم الادباء : ١١/٢٠٨ وفوات الوفيات ٢/٢٧١ ومعجم البلدان في الكلام عن الخالدية .

فهي تبعد عنهما الهموم وتقارع الخطوب وتنسيهما الحوادث • وهي أيضا تسرهما وتفرحهما •

فأبو بكر الخالدي مثلا حين يذكر الخمر ، يقول ان نار همومه لا تنطفيء أو تخمد الا بنور خمر الكؤوس الملتهب الذى يقضي على هذه النار • ولا يهمه بعد ذلك أن يظل الزق ممتهنا مبتذلا يسحب فوق الارض ومثله ذيل مجونه ما دام هو يرضى عن ذلك :

وليس نار الهموم خامدة ... الا بنور الكؤوس ملتهبا
يظل زق المدام ممتهنا ... سحبا وذيل المجون منسحبا[٢]

وقد رضى ابو بكر بالكأس مهما تفعل به • سواء أذهبت بكيسه أم عقله أم اتزانه[٣] لانها تقضى على جيش همومه وتعوضه عنه بجيش من الافراح :

ان تفن كأسك أكياسي فن بها ... يفل جيش همومي جيش أفراحي[٤]

وقد يعدها رزقا مفاجئا من الله تعالى ، ويشعر بأنها سريعة الافول والانطفاء ، لان ايام السرور تطير به طيرا فيدعو اليها :

ألا فاسترزق الرحمن خيرا ... وسر بالكأس نحو السكر سكرا
فأيام الهموم مقصصات ... وأيام السرور تطير طيرا[٥]

أو قد يجلو بها ظلام لياليه فيشربها شعلة من نار الا أنها لاتحرقه :

كأس مدام جلا المدير بها ... أم الليالى وجدة الابد
نشربها شعلة بلا حرق ... ونجتليها روحا بلا جسد[٦]

---

(٢) اليتيمة : ١٨٥/٢ وديوان الخالديين ص ١٨ •
(٣) ربما أراد فناء نقوده •
(٤) اليتيمة : ١٨٨/٢ وديوان الخالديين : ٤٠ •
(٥) مسالك الابصار : ٢٩٠/١ وديوان الخالديين : ٥٥ •
(٦) مسالك الابصار : ٢٩٦/١ وديوان الخالديين : ٥٠ •

وهى اخيرا درع واقية وسترة حصينة يرتديها ليقارع بهـا زمانـه ويقاومـه :

والـــراح أحصن جنـــة لـــك فى مقارعـة الزمان[٧]

ويطيب شرب الخمر عند الشاعرين فى حضن الطبيعة المزهرة ذات الورد المتفتح والخضرة البديعة • فالروض العبق ذو الالـوان الفاتنـة ، والازهار المتنوعة من نرجس وبهار وبنفسج لهما اكبر تأثير فى ذوقيهمـا لدى معاقرتها •

وهذا ابو بكر الخالدى يشتاق الكأس طافحة ، لان قلبه قـد طفح بالهموم • ولكنه يفضل ان يشربها على بساط من البنفسج ، وفوق هـذا البساط مطرح من الورد :

قد طفح القلب بالهموم فـان طفت بكـأس فهاتهـا تطفـح
على بسـاط من البنفسج قـد ألقي من الورد فوقه مطرح[٨]

وفى مدينة الموصل واد عليه رابية تشرف على نهر دجلة والبسـاتين وهى غاية فى الربيع • رآها ابو بكر فاعجبته بزهرها ومنثورها[٩] وأحب الشرب فيها دون تأخير وانتظار فقال :

ألست ترى انتـل يبدى لنـا طـرائف مـن صنـع آذاره
وقد نقط الزهر خـد الثـرى بدرهمـــه وبدينـــاره[١٠]
فـلا تلق كأســا بتأخيرهـا ولا يـوم لهـو بانظـاره[١١]

---

(٧) مسالك الابصار : ١/٣٠٦ وديوان الخالديين : ١٠١ •
(٨) مسالك الابصار : ١/٢٩١ وديوان الخالديين : ٤١ •
(٩) المنثور : نبات له زهر مختلف بعضه ابيض وبعضه أصفر •
(١٠) اراد بالدرهم اللون الابيض من الزهر وبالدينار اللون الاصفر منه•
(١١) مسالك الابصـار : ١/٢٩٥ ومعجـم البلـدان : ٤/٨٧٥ وديـوان الخالديين : ٦١ـ٦٢ •

اما فى مدينة (بلـد) فقد أحب شاعرنا الشـرب فى ديـر (أبي يوسف) على ترجس عطر كنسيم المحبوب الذى يتخيله المحب المشـتاق عند اللقـاء :

بديـر أبي يوسف خمـرة تزيـد عـلى لهب البـارق
ونرجسه كنسـيم الحبيب عنـد محب لـه وامـق(١٢)

ولكن أبا عثمان الخالدى أخاه يدعو الى شربها حين يرى الطـل يلمع فى عيون الورد الابيض ، وكأنه اللؤلؤ أو الدمع الذى يلوح فـى جفون انسان باكى • وحين يرى الجو يكتسى حلة سوداء من الغيم يطرزها البرق بالذهب :

أدن من الـدن بي فـداك أبي واشرب وهات الكبير وانتخب
أما ترى الطل كيف يلمع فى عيون نور تدعو الى الطـرب
فى كل عـين للطـل لـؤلـؤة كدمعـة فى جفـون منتحب
والجـو فى حلـة ممسـكة قد كتبتها البروق بالذهب(١٣)

ويظهر جليا أن للربيـع تأثـيرا كبيرا فى نفس أبى عثمـان ، حيث تنطلق الدنيا وتزهو الارض بالرياض الملونة بشـتى الازهـار والرياحين والورود التى تشبه الوشى والديباج ، وتكتسى الاشجار بخضرتها وزهرها، وتسجع الحمائم الحانها وانغامها الشـجية التى تـذكره بالمحبوب ، ويهب خلال ذلك النسيم العبق العليل ذو الرائحة الزكية • فلا يفوته ذلك اليوم دون لهو وقصف ودون وصف رائع بديع :

ما حسن ديـر سعيد اذ حللت به والارض والروض في وشيوديباج

---

(١٢) المسالك : ٣٠٣/١ وديوان الخالديين : ٧٣ •
(١٣) اليتيمة : ١٩٩/٢ ومعجم الادباء : ٢١١/١١ ومعاهـد التنصيص ١٩٣ وديوان الخالديين : ١١١ •

فمـا تـرى غصناً الا وزهرتـه تجلـوه في جبـة منهـا ودواج
وللحمائـم الحـان تـذكـرنـا أحبابنـا بـين أرمـال واهـزاج
وللنسيـم عـلى الغـدران رفرفـة يـزورهـا فتلقـاه بأمـواج
والخمر تجلى عـلى خطابها فترى عرائس الـكرم قـد زفت لازواج
وكلنـا من أكاليل البهـار عـلى رؤوسنـا كأنو شـروان في التـاج
ونحن فى فلك اللهـو المحيط بنا كأننـا فى سماء ذات أبـراج(١٤)

هكذا تزف عرائس الاعناب لازواجها من امثال أبى عثمـان وقـد كللت رؤوسهم بالبهار وبدا للشاعر أنهم فى سماء ذات ابراج • لان فلك لهوهم قد أحاط بهم •

ان الشغف بالشراب وادمانه يدفعان الشاعر لاستغلا الاوقات لشربه • فيطيب لابى بكر الشرب احيانا طول النهار من الصبـاح حتـى اصفـرار الشمس ودنوها من الغروب ، فيقول :

رق ثـوب الدجى وطـاب الهـواء وتـدلت للمغـرب الجـوزاء
والصبـاح المنـير قد نشـرت منـه عـلى الارض ريطـة بيضـاء
فاسقنيها حتى ترى الشمس في الغر ب عليهـا غـلالـة صفـراء(١٥)

أما دير (الاعلى) فى الموصل فيغرى أبا بكر بادمان الخمر فيه بين الشروق والغروب • وذلك لجماله وحسنه وطيب نسيمه وروعة موقعـه المطل على نهر دجلة حيث الغدران والخلجان مع وجود الرياض والغياض حولـه :

واستشرفت نفسي الى مستشـرف للديـر تـاه بحسنـه وبطيـه

---

(١٤) اليتيمة : ٢/٢٠٥-٢٠٦ ومعجـم البلـدان : ٢/٥٦٢ والديوان : ١١٥-١١٦ • وينظر المسالك : ١/٢٩٢ والديوان : ٨٤-٨٥ حـول وصف نفس الدير •
(١٥) اليتيمة : ٢/١٨٧ والديوان : ٩-١٠ •

متفرق آذيّ دجلة تحته بغديره وخليجه وقليبه
فنعمت بين رياضه وغياضه وسكرت بين شروقه وغروبه(١٦)

وقد يكون الفجر ضاحكا مبتسما بخيوطه البيض فيدعو أبا بكر للشرب فيبدى الشاعر حينئذ الفرح والسرور ، لان الظلام قد ولى وانصرف ولان الشمول خاصة اصبحت حلالا فى هذا الوقت الذى حرم فيه اللوم • واستطاع الشاعر بضوء مدامه ان يعين الصباح على طرد الظلام المتبقى فى الافق :

هو الفجر قابلنا بابتسام ليصرف عنا عبوس الظلام
ولاح فحلل كأس الشمو ل صرفا وحرم كأس الملام
نعين الصباح عى كشفه قناع الظلام بضوء المدام(١٧)

أما صبوح ابى عثمان فهو يختلف عنه • وذلك بان يكون للطبيعة من وصف الليل والنجوم والغرب والشرق والسحاب والبرق والمطر والروض مجتمعة ، اهتمام كبير يدفعه نحو معقرتها والاستئناس بها :

الليل يا صاحبي منطلق يقاد زحفا وما به رمق
غمض دون الغروب كوكبه اذ شفه طول ليله الأرق
ورق جدا رداء ظلمته فهو على منكب الربى خلق
تأملا الغرب كيف ذهبه شرق بتوريد فجره شرق
فاصطبحاها على مفوفة بات لها بالقطار مغتبق
روض غريق ومزنة ضحكت عن افق بالبروق يحترق(١٨)

وللغبوق عند الشاعرين اوصاف اخرى • فهو عند ابى بكر يستلزم

---

(١٦) المسالك : ١/٢٩٣ والديوان : ٢٩ •
(١٧) اليتيمة : ٢/١٩٢ ومن غاب عنه المطرب : ٦١ والديوان : ٩٥-٩٦•
(١٨) اليتيمة ط بيروت : ٢/١٨٠ والديوان : ١٤١-١٤٢ •

وصف السماء وما فيها من نجوم وهلال • فيكون الليل نهارا من تأثير ضياء الخمر • والسماء خرّما[١٩] ، والنجوم مشرقات كالنرجس والبهار• أما الهلال الجميل اللماع فى الغرب فدملوج أو سوار من الفضة البيضاء تحلت به السماء :

رب ليل فضحته بضياء الرا ح حتى تركته كالنهار
ذي سماء كخرّم ونجوم مشرقات كنرجس وبهار
وهلال يلوح في ساعد الغر ب كدملوج فضة أو سوار[٢٠]

وحينما يكون الهلال بدرا ويختفى هذا البدر غارقا فى الغمام يطيب لابى بكر ايضا أن يعاقرها ، وخصوصا اذا ما افتضحت الظلماء وانكشفت بلمعان البرق الملون الذى يخفق كقلب العاشق المشتاق :

ألا فاسقني والليل قد غاب نوره لغيبة بدر في الغمام غريق
وقد فضح الظلماء برق كأنه فؤاد مشوق مولع بخفوق[٢١]

وحب الخمر من قبل الشاعرين جعلهما يكثران من زيارة الاديرة والبيع وغشيانها ، ومن التردد على الحانات الموجودة فيها آنذاك •

ويحدثنا ابو بكر بعدة اديرة كان قد غشيها وتمتع بخمرها والتذلهوها وقصفها • ووصف لنا ما لاحظه فيها •

ودير عمر الزعفران وحانته واحد من هذه الاديرة المنتشرة فى مدينة الموصل • وقد وجد فى حانته خمرا قديمة معتقة وطيبة لذيذة ، ذات لون داكن • وذكر رهبانه الشيب الذين يفوقون الشبان جمالا وبهاء ونشاطا بطلعتهم وأوجههم وحركتهم فقال :

---

(١٩) الخرّم : بتشديد الراء : نبات زهرة بنفسجى اللون •
(٢٠) اليتيمة : ٢/١٩٣-١٩٤ ومن غاب عنه المطرب : ٥٣ والديوان : ٥٧ •
(٢١) اليتيمة : ٢/١٨٤ وشرح المقامات : ١/٣٦٣ ومعاهد التنصيص : ١٩٤ والديوان : ٧٤ •

وزعفرانية في اللون والطيب طيبة الخمر دكناء الجلابيب
ثوت بحانة عمر الزعفران على مر الهواجر فيه والاهاضيب
وما الغطارفة الشبان ان شربوا خمرا بأبلج من رهبانه الشيب[٢٢]

ويحدثنا ابو بكر مرة اخرى عن هذا الدير الذى ذهب اليه وصاحب فيه الامير ابا البركات بن ناصر الدولة ، وأمره أن يعمل فيه شعرا • فقال يصف غرفة الجميلة التى تشبه الجنان الزاهية وقنانيه التى وضع فى فم كل قنينة منها مصفاة من الآس الخسروانى[٢٣] لتصفي ما فيها من الشراب ولتطيب نكهتها ورائحتها :

عطلت دارسة المغاني وعمرت عمر الزعفران
وأقمت في غرف لديه كأنها غرف الجنان
وترى قنانيا مفدمة بآس خسرواني[٢٤]

ولعل (دير بامخايال) الذى كان موجودا بأعلى الموصل ، والذى يشرف على دجلة خير مثال يسوقه لنا ابو بكر على ملازمته له ، وزيارته الدائمه لهيكله ، ومعاقرته الخمر فيه • فان من اراده فسيجده هناك مطروحا مخمورا ، لانه يعده عمره الذى وجد فيه أمانيه • وهو لهذا يغرى صاحبيه أن يزوراه صباحا أو مساء :

(ببامخايال) ان حاولتما طلبي فأنتما تجداني ثم مطروحا
يا صاحبي هو العمر الذى جمعت فيه المنى فاغدوا للدير أو روحا[٢٥]

ويظهر لنا ان ابا بكر كان عاشقا دير (بامخايال) فهو يفديه باغلى

---

(٢٢) مسالك الابصار : ٢٥٦/١ وديوان الخالديين : ٢٢/٢١ •
(٢٣) الآس الخسروانى : ضرب من الرياحين أو شجر ورقة عطر •
(٢٤) المسالك ٣٠٦/١ والديوان : ١٠١ •
(٢٥) المسالك : ٢٩٨/١ ومعجم البلدان : ٦٩٣/٢ والديوان : ٣٥-٣٦ •

ما يملك لانه أثر فى نفسه تأثيرا بالغا ، بسبب وجود ما يحتاج اليه دائما ، اذ يقول :

أبامخـــايـال أفـــدى ثـــراك بنفسي ومـالي وعمـي وخـالي
فـكـم سـكـرة لي قبـل الاذا ن بـين دواليـه والـدوالي(٢٦)

وفى قصيدة أخرى نجد ابا بكر يصف لنا شوقه الشديد لهذا الدير الذى اقام به مدة طويلة فاصبح يلهج بمحاسنه ليل نهار ويجعل خمره فى الظلام صبحا له ومصباحا • فهو كبيته الذى يأنس به دائما ويرتاح اليه • وهو مفتاح أنسه ولهوه ، منادما فيه الرهبان ذوى الطبائـع الحسـنة التى تفوق فى صفائها المدامة التى يشربها معهم • فهم ذوو معرفة جيدة وارواح خفاف رقاق ، قد البسوا الآداب من فلسفتهم وحكمتهم الواضحة الجلية •

وهذا الدير ذو بدائع لا تقارنها بدائع دير (العلث أو ديـر حنـة) المشهورين منذ ايام بني المنذر • وقد كثرت زيارته له ايام صباه حتى حنّ اليه والى حاناته • وغدا شوقه اليه يغلب اصوات الاقداح التى كان يعاقرها فيه ، حتى عرفه آنذاك الخمار معرفة جيدة ، وأصبحت احاديثه الجميلـة الطريفة فى سكره وانتشائه احسن مما هى عليه فى حالة صحوه • ولذلك فهو يدعو له بالسقيا الدائمة والمطر العميم ليلا ونهارا :

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي وخمره فيالدجى صبحي ومصباحي
أقمـت فيـه الى أن صـار هيكلـه بيتي ومفتـاحـــه للانس مفتـاحي
منـادمـا فى قـلاليـه رهـابنـــة راحت خلائقهم أصفى من الـراح
قـد عدلوا ثقل أوزان ومعـرفـــة فيهـــم بخفـــة أبـدان وأرواح
ووشـحوا غـرر الآداب فلسفة وحكمـــة بعلـوم ذات ايضـــاح
بدائع لا لديـر (العلث) هن ولا لدير (حنـة) من ذات الاكـيراح

(٢٦) المسالك : ١/٢٩٧ والديوان : ٨٣-٨٤ •

وكم حننت الى حاناته وغـــدا شوقي يكاثر أصـواتا باقـــداح
حتى تخمـر خمارى بمعرفتي وصـيرت ملحي في السكر ملاحي
أبامخايال لا تعـدم ضحى ودجى سجال كل ملث الودق سحاح[٢٧]

وقضى ابو بكر ليلة فى دير (متّى) ولها بهذه الليلـة واستمتع بالراح والغناء حتى الصباح[٢٨]. وكذلك زار الدير الاعلى فلذت له الخمر واستمتع بالغناء بين البكور والغروب وبين الرياض والبرك والغياض فقال :

أدرها ألست تـرى الدير في بدائع من حلل لـم تحـــك
وبـين البكـور وبين الغـروب وبـين الرياض وبـين البرك
غنـاء تشد اليـه الرحـال بلحن تحل عليـه التكك[٢٩]

وادمان الخمر يتطلب من الشاعر أن يشتريها دوما وان تكون متوفرة لديه عند الحاجة . والا فعليه ان يستهديها من معارفه أو اصدقائـــه أو ممدوحيه . وهذه أبيات من قصيدة لابى بكر الخالدى يستهدى نبيـذا . قالها حين عزم على أخذ دواء واحتاج الى الشرب . فقد مرض ابو بكـر ولعل مرضه كان زكاما ، اذ اوضح لنا فى ابياته ان الفصل فصل الاخلاط من الدم والبلغم وغير ذلك . لان المناخ متغير ، وينبغى لـه اذن ان يتقى ضرر هذه الاخلاط بأخذ الدواء . ولكنه فيما يظهر لا يستطيع ان يشرب الدواء الا مع النبيذ ، وليس هناك من شخص الا وقد شرب قدحا مرا أو قد فصد عرقه ليخرج منه الدم الفاسد . ولذلك فهو فى حاجـة شـديدة لقهوة حارة فى طبيعتها يطفىء بجمرتها شدة ونشاط البرد الذى اصابه :

هذا زمان علاج يتقي ضرر الـــ اخلاط فيه لأن الفصل قـد وفـدا

---

(٢٧) اليتيمة : ١٨٨/٢ والمسالك : ٢٩٥/١ والديوان : ٣٧ـ٣٩ .
(٢٨) ينظر اليتيمة : ١٩٣/٢ وفيها (دير قنى) والمسـالك : ٢٩٩/١ والديوان : ٧٥ـ٧٦ .
(٢٩) المسالك : ٢٩٤/١ والديوان : ٧٧ . التكك : جمع تكة ، وهي رباط السراويل .

فلست تبصر الا شارباً قدحاً ... مراً والا نزيف الجسم مفتصدا
وروقوا لي رطلا لست أذكره ... الا عدمت لديه الصبر والجلدا
وليس لي قهوة أطفي بجمرتها ... عن مهجتي شرة الماء الذي بردا
فامنن بدستيجة المشروب يومك ذا ... فقد عزمت على شرب الدواء غدا(٣٠)

ان استهداء الخمر أو توفرها لدى بعض الشعراء جعلتهم لا يستطيبون معاقرتها وحدهم دون الاستئناس باصدقائهم ونداماهم. فقد كانوا يستدعونهم الى بيوتهم احيانا بعد ان يعدوا عدتهم من الشراب وغيره . وهذا ابو عثمان الخالدي يذكر لنا دعوته لصديق له في يوم شك . ولا يغيب عن بال الشاعر في اثناء قصيدته وصف الطبيعة . حيث يصف جو ذلك اليوم الممسك الاسود ورداءه العبق بالعنبر ، وماءه الابيض الفضي ، وجلباب الارض الاخضر الموشى بالزهر الملون والروض الذي امتلأ بالندى والطل. ودعوة الشاعر لصديقه لا تخلو من ترغيب في المجيء اليه ، واغراء بالمدامة المعتقة التي ادرك عمرها كل من كسرى وقيصر ، حيث الحديث الشيق الممتع والشعر الرقيق البديع والكاسات الكبيرة التي تروى الظمآن . فيقول :

هو يوم شك يا عليّ وشره ... مذ كان يحذر
والجو حلته ممسّكة ومطرفه معنبر
والماء فضيّ القميص وطيلسان الارض أخضر
نبت يصعد زهره ... في الروض قطر ندى تحدر
وأخو الحجا لو كان هذا اليوم من رمضان أفطر
ولنا فضيلات تكو ... ن ليومنا قوتا مقدر
ومدامة صفراء أد ... رك عمرها كسرى وقيصر

(٣٠) اليتيمة : ١٩٨/٢ والديوان : ٤٤ـ٤٥ .

وحديثنا ما قد علمت وشعرنا ما أنت أبصر
فانشط لنا نحتث من كاساتنا ما كان أكبر
أو لا فانك جاهل ان قلت انك سوف تعذر(٣١)

* * *

والشعراء الذين كانوا يعيشون بين الخمر قد نعتوها ووصفوها بمختلف النعوت والاوصاف • وذكروا رائحتها وشبهوها بالمسك والخلوق والعنبر • وبدت في أعينهم حمراء وصفراء وبيضاء وكلون الذهب والورد والشمس والشهاب والمريخ •• الخ وكذلك ذكروا قدمها وتعتيقها •

فالخمر عند ابى بكر حمراء قد نقطها المزاج بالماء بدنانير من الحبب أو الذهب :

حمراء حين جلتها الكأس نقطها مزاجها بدنانير من الحبب
كم جددت وهي لم تفضض خواتمها من الدهور وكم أبلت من الحقب(٣٢)

وهى أيضا حمراء الا انها من الياقوت الاحمر وقد اشبهت الخلخال المفتول :

فأجراها كخلخال من الياقوت مفتول
مداما لا يرى طرفك منها غير تخييل(٣٣)

ولكنها احيانا يستحيل لونها فى عين ابى بكر وتتغير حمرتها فتصبح كحمرة الشمس • اذ يقول :

أهلا بشمس مدام من يدى قمر تكامل الحسن فيه فهو تياه(٣٤)

---

(٣١) اليتيمة : ٢/٢٠٠ وديوان الخالديين : ١٣٢-١٣٣ •
(٣٢) كذا فى اليتيمة : ٢/١٨٩ والديوان : ٢٤ • وفى مسالك الابصار وعيون التواريخ (بدنانير من الذهب) •
(٣٣) المسالك : ١/٢٩٢ والديوان : ٨٥ •
(٣٤) اليتيمة : ٢/١٩١ والديوان : ١٠٢ •

ويقول ايضا :

رب ليل فضحته بضياء الـــراح حتى تركتـــه كالنهـار
بت أجلو به شموس وجوه حملت في الدجى شموس عقار(٣٥)

وربما تكون عند ابى بكر ذات لون أصفر كالقمر فيقول :

وعندنا عاتقان حمراء كالشمـــس واخرى صفـراء كالقمر
مدامـة كأن من تقادمهـا عاصرها آدم أبو البشر(٣٦)

وقد يتغير لونها الشمسى أو لونها القمرى عنده فتبدو لـه كلهيب البرق اللامع فيقول :

بدير أبي يوسف خمـرة تزيد على لهب البـارق(٣٧)

أو يصفها بشعلة نار ساطعة قبل ان تمزج بالماء فيقول :

راح كضوء الشهـاب سلافـة الاعنـاب
والمزج مـاء غديـر صاف كماء الشباب(٣٨)

اما اخوه ابو عثمان فحمرتها لديه مرة كالنار ولهبها . وذلك حين تمزج بالماء اذ يقول :

فلو ترى الكأس حين يمزجهـا رأيت شيئاً من أعجب العجب
نار حواها الزجاج يلهبها المـا ء ودر يـدور في لهـب(٣٩)

ومرة أخرى كلون كوكب المريخ الذى يميل الى الاحمرار فيقول:

يـا نـديمي اطلـق الفجـر فمـا للكـأس حبس

---

(٣٥) اليتيمة : ١٩٣/٢ ومن غاب : ٥٣ والديوان : ٥٧ .
(٣٦) اليتيمة : ١٨٧/٢ والمسالك : ٢٩١/١ والديوان : ٥٩ـ٦٠ .
(٣٧) المسالك : ٣٠٣/١ والديوان : ٧٣ .
(٣٨) اليتيمة : ١٩٦/٢ والديوان : ٢٢ .
(٣٩) اليتيمة : ٢٠٠/٢ والديوان : ١١١ .

وهي كالمريخ لكن هي سعد وهو نحس[٤٠]

ويتبدل لون الخمر فى اوصاف الشعراء من الحمرة الى الصفرة ، كما تكون صفراء كالقمر كما مر قبل قليل عند ابى بكر ، يعود فينعتها باصفرار عام اذ يقول :

وصفراء بائعها خاسر ولو حاز عن قدح بيت مال[٤١]
قهوة تعطيكها قبل طلوع الشمس شمس

وهى ايضا تتميز بصفرة عامة لدى ابى عثمان اذ يقول :

وعندنا صفراء من قامرت بالسكر منا فهو مقمور
سلاف أعناب فعنقودها من قبل أن يعصر معصور[٤٢]

ويقول ايضا فى مكان آخر :

ومدامة صفراء أدرك عمرها كسرى وقيصر[٤٣]

وصفرتها هذه تتحول الى لون العصفر عند ابى عثمان اذ يقول :

وعصفرت راحة المدير كما عصفر جيب الدجنة الشفق
جازت مدى الفكر في الصفاء فلو مازجها الوهم سمّها رنق[٤٤]

وقد تتحول الى لون كأسها بحيث لا يفرق الناظر اليها بينها وبين الكأس لرقتها وصفائها :

هتف الصبح بالدجى فاسقنيها قهوة تترك الحليم سفيها
لست تدرى لرقة وصفاء هي فى كأسها أم الكأس فيها[٤٥]

---

(٤٠) اليتيمة : ٢/٢٠٢ والديوان : ١٣٤ .
(٤١) المسالك : ١/٢٩٧ والديوان : ٨٤ .
(٤٢) اليتيمة : ٢/٢٠٥ والديوان : ١٢٤ .
(٤٣) اليتيمة : ٢/٢٠٠ والديوان : ١٣٣ .
(٤٤) اليتيمة : ٢/١٨٠ ط بيروت والديوان ١٤٢-١٤٣ .
(٤٥) اليتيمة : ٢/٢٠٣ واحسن ما سمعت : ٤٧ وحلبة الكميت : ١٠٨ ومعجم الادباء : ١١/٢١٠ والديوان : ١٥٠ .

والخمر ربما تكون ذات الوان مختلفة • فقد تكون كدم الغـزال وهي غير ممزوجة بالماء أو تكون شمطاء اللون بين البياض والسواد أو صفراء كصفرة الذهب أو حمراء كالعقيق • فهي تتشكل وتتلون في عين أبي بكر فيقول :

قهـوة بابليـة كـدم الشـا دن بكـراً لكنهـا شـمطـاء
قـد كستهـا الدهـور أرديـة الـرقـة حتى جفـا لديهـا الهـواء
فهي في خـد كأسهـا صفرة التبـر وفـي الخـد وردة حمـراء
عجب مـا رأيت من أعجب الأشيـاء تقـديـر مـن لـه الاشيـاء
سـبج يسـتحيـل منـه عقيـق وظـلام ينسل منـه ضيـاء[٤٦]

أما لونها الابيض المشوب بلون الورد ، فيدفع الشاعر الى وصفها بالعروس وثيابها • فهي عند ابي عثمان عروس محمرة الخدين توشحت بالحبب الذي يعلوها :

فهاتها كالعروس محمرة الـ خدين في معجر من الحبب[٤٧]

وقد تجلى عدة عرائس من الخمر على خطابها (شاربيها) فيراهـا حينئذ ابو عثمان وكأنها قد زفت لازواجها :

والخمر تجلى على خطابهـا فترى عرائس الكرم قد زفت لازواج[٤٨]

وللخمر رائحة عند عشاقها من الشاربين ، وابو بكر يشمها كالخلوق فيقـول :

---

(٤٦) اليتيمة : ٢/١٨٧ والديوان : ١٠ • السبج : جمع سبجة : خرزة سوداء •

(٤٧) اليتيمة : ٢/١٩٩ والديوان : ١١١ • المعجر : ما تشده المرأة على رأسها •

(٤٨) اليتيمة : ٢/٢٠٥ والديوان : ١١٥ •

مداما كأن الكف من طيب نشرها وصفرتها قد خلقت بخلوق[٤٩]

ويقول فى مقطوعة أخرى :

لتقنص بكراً خلوقية تخير عن حكمة الخالق[٥٠]

أما ابو عثمان فيشمها كأرج العنبر فيقول :

كادت تكون الهواء في ارج الـ عنبر لو لم تكن من العنب[٥١]

وآلات الشراب ولوازمه من كيزان فقّاع ودنان وزقاق وراووق وكؤوس أو اقداح ومبزال وابريق ... الخ لم تغب عن بال الشعراء ، فقد ذكروها ونعتوها وبينوا لنا هيئاتها واشكالها وهى محتوية على ما فيها من الشراب والنبيذ والخمر . والخالديان الشاعران لم يصفا لنا شيئا من هذه اللوازم سوى الكؤوس أو الاقداح وما يعلوها من الحباب ولون الزجاج الذى صنعت منه هذه الاقداح . كما وصفا اليد التى تقدمها .

وقد تخيل ابو بكر الكأس تضحك تحت الحباب مثل وجنة الخد الحمراء التى تلوح من تحت النقاب الابيض . اذ قال :

فكأن الكأس لما ضحكت تحت الحباب
وجنة حمراء لاحت لك من تحت النقاب[٥٢]

وللسرى الرفاء وصف مثله اذ قال :

وكأن كأس مدامها لما ارتدت بحبابها

---

(٤٩) اليتيمة : ٢/١٨٥ . الخلوق : نوع من الطيب يضرب الى الصفرة .
لم يذكر جامع ديوان الخالديين هذا البيت فى المقطوعة التى اثبتها فى الديوان .

(٥٠) المسالك : ١/٣٠٣ والديوان ٧٣ .

(٥١) اليتيمة : ٢/٢٠٠ والديوان : ١١١ .

(٥٢) اليتيمة : ٢/١٨٤ وحلبة الكميت : ١١٤ والديوان : ٢٠ .

تـوريـد وجنتهـــا اذا مـا لاح تحت نقـابهـــا[٥٣]

ولا نعلم ايهما السابق الى المعنى .

ووصف أحد الخالديين الكأس بالزبرجد[٥٤] الاخضـر اللمـــاع والكف التى تحملها بالعاج الابيض والحباب باللالىء الجميلـة والخمـــر بالذهب لانها صفراء . وقد أجاد فى الوصف :

فالكف عاج والحبـاب لآلىء والراح تبر والزجاج زبرجد[٥٥]

وحباب الكؤوس والاقداح يكون نقابا ابيض كما مر بنا قبل قليل . ولكنه يختلف هذه المرة فهو كواكب تلمع فى سماء زرقاء . أما الراح فشمس الا انها تحت هذه الكواكب . يقول ابو بكر :

ومدامـة صفـراء في قـــارورة زرقـــاء تحملهـــا يـد بيضـــاء

فالراح شـمس والحباب كـواكب والكف قطب والاناء سمـــاء[٥٦]

وهذه الكواكب هى من الدر الابيض اللامع وسماؤها فى هذه المرة عقيق احمر اذا كانت الخمر حمراء :

كأن حبـاب الكأس في جنباتهـــا كواكب در في سمـاء عقيق[٥٧]

ويبدو حباب الخمر فى اعلى الكأس احيانا كالدنانير :

حمراء حين جلتها الكأس نقطهـا مزاجهـا بدنانـير من الحبب[٥٨]

ولعل أجمل وصف لمزج الخمر بالماء وظهور الحباب ما قاله ابو بكر فى وصفه المزج مرة بماء غدير صاف ، ومرة بلمع سراب ابيض ، ومـرة

---

(٥٣) اليتيمة : ٢/١٨٤ وحلبة الكميت : ٩٤ . وحلية البـديع : ١٧٠ . ونفحات الازهار : ٢٦٤ . وشرح المقامات ١/٢٧٤ ، ٢/٢٦٢ .

(٥٤) الزبرجد : الزمرد .

(٥٥) احسن ما سمعت : ٥٣ والديوان : ١٥٩ .

(٥٦) اليتيمة : ٢/١٩٥ والديوان : ١١ .

(٥٧) اليتيمة : ٢/١٨٥ والديوان : ٧٤ .

(٥٨) اليتيمة : ٢/١٨٩ والديوان : ٢٤ .

ثالثة بجسم در تعلوه فقاقيع الخمر التى تشبه الدرع :

والمزج ماء غدير صاف كماء الشباب
لو لم يكن ماء مزن لكان لمع سراب
كأنه جسم در عليه درع حباب(٥٩)

ان التغزل بالسقاة او الساقيات لا ينفصل عن وصف الخمر والكأس. فالشاعر لا يستطيب الخمر الا من ايدى هؤلاء السقاة والساقيات وكلما كان الساقى جميلا صبيح الوجه حمد الشاعر اللهو والقصف وانبسطت اساريره وانشرح صدره . وهذا ساق أهيف القامة فى ريعان شبابه . وقوامه مثل الغصن المياد المهتز ولا يمزج الخمر بالماء حين يقدمها ، وانما يمزجها برضابه العذب الصافى كما يخبرنا ابو بكر اذ يقول :

قام مثل الغصن الميّاد في غض الشباب
يمزج الراح لنا بالصفو من ماء الرضاب(٦٠)

وفى دير سعيد ساق كالقمر تجرح عيونه القلوب قال عنه أبو بكر :

وكأس راح يديرها قمر لحاظه في قلوبنا تجرح

قد كان فيما مضى يعرض بالوصل ولكن أراه قد صرّح(٦١) .

أما الساقية فهى حوراء المقلتين تفنى القلوب اذا ما قربت أو بعدت لانها جميلة جدا تفوق الشمس فى محاسنها وطلعتها :

شربتها من يدى حوراء مقلتها تفني القلوب بتبعيد وتقريب
شمس اذا طلعت قالت محاسنها :
ها قد طلعت فيا شمس الضحى غيبي(٦٢)

---

(٥٩) اليتيمة : ١٩٦/٢ والديوان : ٢٢ .
(٦٠) اليتيمة ١٨٤/٢ ونفحات الازهار : ٢٦٤ والديوان : ٢٠ .
(٦١) المسالك : ٢٩١/١ والديوان : ٤١ .
(٦٢) المسالك : ٢٥٦/١ والديوان : ٢٢ .

وقد تكون صاحبة الامر فى الحانة مغنية كبدر الدجى جمالا وبهاء وذات رائحة عطرة ، قد بزلت المدام لزوارها بعد ان حضنت عودها وطفقت تضرب وتغني ، وقد أمرت وصيفاتها اللواتي وضعن في نحورهن قلائد من الزهر وقرطن وعقرين اصداغهن وطررهن ، ان يقدمن لهم الخمر كقول ابى بكر :

وبنت خدر تريك صورتها ... بدر الدجى في ردائها العطر
حنت على عودها وقد بزلت ... مدامنا جمرة بلا شرر
يسعى علينا بها الوصائف قلّدنّ مجوناً قلائد الزهر
قرطن قرطين اذ جلبن لنا ... معقربات الاصداغ والطرر(٦٣)

والسقاة يختلفون فى الجمال والفتنة ويختلفون فى تصرفاتهم اثناء تقديمهم المدام للشاربين.والشعراء يلاحظون ذلك ويحسونه سريعا لرقة شعورهم ورهافة أنفسهم . فقد يتراءى بعض السقاة مسرورا ضاحكا الا انه كثير التدلل والامتناع ساخر بمن يعشقه أو يتغزل به . كقول ابى بكر :

تسبيك قامته ان قام يمزجها ... موشحا بصليب صيغ من ذهب
كم مرة قلت اذ اهدى تدلله ... الىّ جد الردى في صورة اللعب
يا ضاحكاً حين أبكاني تبسمه
حق من الحب تبكيني وتضحك بي(٦٤)

وبعضهم الآخر يبدى الجفاء والصدود والغضب ، فيغضب الشاعر على ما أبدى هذا الساقى من الغضب وعدم الرضا حبا له . كقول ابى عثمان :

فهاتها كالعروس محمرة الخدين في معجر من الحبب

---

(٦٣) اليتيمة : ١٨٧/٢ والديوان : ٦٠ . الطرر : جمع طرة وهى شعر الناصية .
(٦٤) ديوان الخالديين : ٢٦ .

من كف راض عن الصدود وقد غضبت في حبه على الغضب[٦٥]

اما الساقى الذى يصفه لنا ابو بكر فليس يشبه الساقى الذى وصفه لنا ابو عثمان • فهو كالقمر جمالا وقد تكامل حسنه فابدى الكبرياء والتيه، ولم يبد الغضب والصدود ولم يعبس أو يقطب فى وجه الشاربين • والخمر التى يقدمها تشبه حمرة خديه ، وكأنما اعتصرت منهما أو من ثنايا فمه ورضابه • وعيناه نرجسيتان تسقى كؤوسا من الخمر الصرف ، وفى وجهه كل ريحان يفرح القلوب ويروق العيون فتهواه وتعشقه ، وهو بعد ذو طرة بنفسجية رائعة وخدين ورديين :

أهلا بشمس مدام من يدى قمر ... تكامل الحسن فيه فهو تياه
كأن خمرته اذ قام يمزجها ... من خده اعتصرت أو من ثناياه
اذا سقتك من الممزوج راحته ... كأسا سقتك كؤوس الصرف عيناه
في وجهه كل ريحان تراح له ... منا قلوب وأبصار فتهواه
النرجس الغض عيناه وطرته ... بنفسج وجني الورد خداه[٦٦]

* * *

وبعد فاننا بهذا البحث استطعنا ان نلقى نظرة فاحصة على قسم قليل من شعر الخمر لدى شاعرين من شعراء القرن الرابع الهجرى • وان نوضح طبيعة هذا الشعر الذى امتزج فيه وصف الطبيعة بالخمر ، وان نلاحظ استخدام الالوان من حمرة وصفرة وخضرة وسواد وبياض...الخ من قبل هذين الشاعرين اللذين قد عشقا الطبيعة عشقهما الخمر• بالاضافة الى ذكر انواع الازهار والماء والطل والسحاب والمطر والبرق ... الخ •

أما النصوص الشعرية لكلا الشاعرين فقليلة جدا ، بحيث لم نستطع أن نلم بالبحث الماما كافيا• فلم نجد مثلا شعرا لهما في وصف آلات الشراب

---

(٦٥) اليتيمة : ٢/٢٠٠ والديوان : ١١١ •
(٦٦) اليتيمة : ٢/١٩١ والديوان : ١٠٢-١٠٣ •

ولوازمه سوى الكأس ، ولم نعثر على شعر لابى عثمان فى وصف ديـــر أو بيعة أو استهداء خمر • والسبب فى ذلك ضياع اكثر شعرهما الـذى قالاه • ولعل المستقبل يكشف لنا عن ديوان لهما يضم ما نحن بحاجـــة اليه فى مختلف الاغراض والفنون •

« مصـــــادر البحث »

١ ـ يتيمة الدهر فى محاسن اهل العصر ـ للثعالبى ط القاهرة : ١٩٥٦ و ط بيروت •

٢ ـ مسالك الابصار فى ممالك الامصار • القاهرة ١٣٤٢ هـ للعمرى •

٣ ـ معجم البلدان ، لياقوت • القاهرة ١٣٢٣ هـ •

٤ ـ معجم الادباء ، لياقوت • القاهرة ١٩٣٦ـ١٩٣٨ •

٥ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى ١٢٧٤ هـ القاهرة •

٦ ـ من غاب عنه المطرب للثعالبى • بيروت ١٣٠٩ هـ •

٧ ـ شرح المقامات الحريرية للشريشى • القاهرة ١٣٠٦ هـ •

٨ ـ عيون التواريخ ـ للكتبى مصورة بـدار الـكتب ج ١٢ رقم ١٤٩٧ تاريخ •

٩ ـ احسن ما سمعت للثعالبى • القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ •

١٠ـ حلبة الكميت فى الادب والنوادر المتعلقـة بالخمـريات ، للنـواجى القاهرة ١٢٧٦ هـ •

١١ـ نفحات الازهار على نسمات الاسحار للنابلسى • القاهرة ١٢٩٩هـ •

١٢ـ وفيات الاعيان لابن خلكان • القاهرة ١٢٩٩ هـ •

١٣ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ـ القاهرة ١٢٩٩ هـ •

١٤ـ حلية البديع فى مدح النبى الشفيع ـ للبكرة جي قاسـم بن محمد القاهرة ١٢٩٣ هـ •

١٥ـ ديوان الخالديين • جمع وتحقيق سامى الدهان • دمشق ١٩٦٩ م •